المشرق الرقميّة
١٩
العدد التاسع عشر
كانون الثاني ٢٠٢٢

مراجعة كتاب:

بوحُ المرجان في اختيار الخلّان: الكلاسيكيّة في قالبٍ عصريّ!

الأستاذة رولا ماجد *

أطلقت المكتبة العربيّة للنّاشئة لجامعة نيويورك – أبو ظبي سلسلةَ "المكتبة العربيّة للنّاشئة" في شهر تشرين الثّاني من العام ٢٠١٩، الّتي تهتم بإعادة إحياء التّراث الأدبيّ العربيّ. وقد أصدرت كتابها الأوّل بعنوان "حياكة الكلام"، والثّاني "لِمَ اشتدّ عشق الإنسان لهذا العالم؟"، والثّالث "ما لذّة العشق إلّا للمجانين"، واحتفت مؤخّرًا بإصدارها الرّابع "بوح المرجان في اختيار الخلّان" (٢٠٢١).

كتاب "بوح المرجان في اختيار الخلّان" هو مختارات عن الصّداقة في الأدب العربيّ. اختار نصوصها الدّكتور بلال الأرفه لي والدّكتورة إيناس خنسة (أستاذا اللّغة العربيّة وآدابها في الجامعة الأميركيّة بيروت) من ثلاثة كتب تعود إلى العصر العبّاسيّ وتحديدًا القرن الرّابع الهجريّ/العاشر الميلاديّ، وهي: "الصّداقة والصّديق" للأديب الصّوفيّ الفيلسوف أبي حيّان التّوحيديّ (ت٤١٤هـ/١٠٢٣م)، و"تهذيب الأخلاق" للفيلسوف المؤرّخ أبي علي بن محمّد مسكويه (ت٤٣١هـ/١٠٣٠م)، و"ترجمة الكاتب في أدب الصّاحب" المنسوب إلى الأديب أبي منصور الثّعالبيّ (ت٤٢٩هـ/١٠٣٨م). وضمّ الكتاب لوحات للفنّان التّشكيليّ محمود الدّاود.

في مقدّمة الكتاب طُرحت إشكاليّة تشير إلى أنّ هذه النّصوص كُتبت لقرّاء عصرها، فكيف لذائقتنا المعاصرة أن تتفاعل مع سياقاتها وقيمها وخصوصيّة مرحلتها؟ وأظنّ أنّ من يقرأ الكتاب سيعي الإجابة غير المكتوبة بشكل مباشر، وسيستشفّها من عناصر الكتاب مجتمعة، فكيف استطاع المحرّران أن يُعَصرِنا تلك النّصوص لتتناسب مع ذائقة اليافعين؟

إنّ الصّداقة قديمة قدَم الإنسان، فهذا الموضوع المطروح يبقى بكرًا يحاكي الإنسانيّة بكلّ وقت، وبالتّالي لا تختلف مفاهيمه الحسّيّة من عصر إلى عصر؛ ونرى أنّ اختياره كموضوع كان هادفًا، وخاصّة أنّه يهمّ ويفيد الفئة العمريّة المستهدفة. تعرض المختارات أنواع الصّداقة، وتُظهر التّباين بين الصّديق الحقيقيّ والصّديق الزّيف؛ فتُعرّف الصّداقة بمعناها الخلقيّ والاجتماعيّ كسمة إنسانيّة نبيلة،

* شاعرة لبنانيّة. رئيسة رابطة الإبداع من أجل السّلام في لبنان. حائزة إجازة في اللّغة العربيّة وآدابها من الجامعة اللّبنانيّة. صدر لها ديوانا شعر.

مجرّدة من الشّوائب، مُترفّعة عن المصالح، مُنزّهة عن الأهواء؛ والموضوع في بعض محطّاته يشير إلى الصّديق الأخ، موجّهًا غايته إلى حسن اختيار الأصدقاء، مشجّعًا على النّوع، منبّهًا من الكمّ، محذّرًا من صداقة السّوء الآتونيّة الّتي قد تُصلي المتهوّرين بجحيمها!

اليوم، يميل القارئ المعاصر إلى أدبٍ وجيز، فنحن نعيش عصر السّرعة والتّحديث، وهذا ما لاحظناه في نظم الكتاب، فإنّ كلّ عنوان منه يُشكّل ومضات مترابطة في المعنى والمبنى، يشعر النّاشئ وحتّى الرّاشد بمتعة قراءتها؛ فتنوّعُ أشكاله الأدبيّة تقفز بالمتلقّي من الحكمة إلى السّرد والنّادرة والقول وبيت الشّعر والخطبة والرّسالة وغيرها؛ هذا يشير إلى سلاسة في العرض مردّها ذكاء في الاختيار، وهذه السّلاسة بعناصرها الأسلوبيّة والتّأويليّة تكسر الرّتابة الّتي يفضّل دائما الابتعاد عنها بأدب النّاشئة. ورغم ذلك، فإنّ النّصوص تحمل في طيّاتها ألفاظًا جزلة تساعد على إغناء المعجم اللّغويّ لدى القارئ. ولا ننسى أنّ المضمون بأسلوب عرضه التّنوّعيّ وأبعاده الفلسفيّة، يفتح آفاق التفكّر الاستفهاميّ ويفلش التّباينات على مساحة فكر المتلقّي/النّاشئ من جهة، ومن جهة أخرى يساعد في إعادة تشكيل العلاقات الإنسانيّة ويوجّه النّاشئة نحو صراط أخلاقيّ مستقيم. فهو يندرج في إطار المتعة والتّسلية بغية الإرشاد والتّوعية. وهذا كلّه، يتناسب مع الفئة العمريّة المستهدفة بعمليّةٍ استقطابيّة، فيقع النّاشئ في فخّ الاكتساب الجميل!

السّيميائيّة بين الصّورة والنّصّ:

ما يعنينا ونعنيه في هذا الصّدد هو دراسة العلامات العلائقيّة بين الصّورة والنّصّ، فكيف وُظّفت الصّورة خدمةً للمعنى؟

إذا نظرنا إلى النّصّ بكونه الدّال بمعناه، فإنّ القارئ يستحضر به المدلول/ المفهوم الّذي يرتسم في مخيّلته، ومن خلاله يُظهِر ذهنه صورًا تحاكي المعنى. وأنّ كلّ لوحة تحمل في ملامحها معانيَ مرئيّة وغير مرئيّة، تكمن في نسقها السّيميائيّ ودلالاته، فالصّورة كالنّصّ في معانيها، ويمكننا مقاربتها مقاربة بلاغيّة.

الموضوع الأساس في الكتاب هو الصّداقة، يتفرّع من سياقه موضوعات: الوفاء، الغدر، الهجر، الفقد، العتاب... ولكلّ منها عنوان ومسار، ونلاحظ أنّ لوحاته تختلف بأبعادها وعلاماتها الدّلاليّة، وتتّحد بجوهرها وأهدافها لتتماهى مع النّصّ. ونرى أنّ تجسيد الفنّان محمود الدّاود للحالات الإنسانيّة كانت أحيانًا أحاديّة تدلّ على الوحدة والفقد أو الاكتفاء، وأحيانًا أخرى كانت ثنائيّة بأبعاد رمزيّة مختلفة، فمنها ما يرمز إلى الودّ، ومنها إلى الفراق، ومنها إلى الغدر بين صديقين. وجزء من هذه اللّوحات لا يحمل ملامح أشخاص، بل أخذ الرّمزيّة وسيلة إيصال، واعتمد تشبيهات النّصّ وكناياته في التّعبير عن الفكرة.

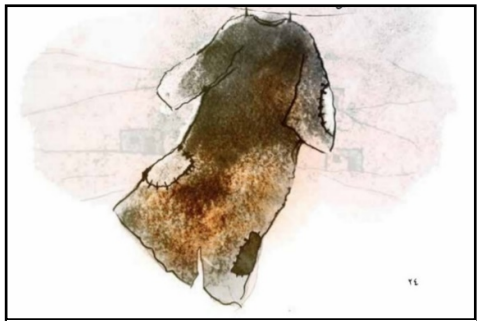

العلاقة بين الصّورة والنّصّ في الكتاب علاقة تمثيليّة. (الصّداقة والصّديق ص٤٥)

"وقيل للخليل: استفساد الصّديق أهون من استصلاح العدو؟ قال: نعم، كما أنّ تخريق الثّوب أهون من نسجه (الصّداقة والصّديق ٤٥)". وتماشيًا مع تلك الفكرة، وفي الصّفحة نفسها، كانت اللّوحة عبارة عن رسم ثوب مرقّع، أشارت إلى المشبّه به لتحاكي النّصّ في مقاربة تُنتج للعين مدىً أوسع في الخيال، وأعمق في ترسيخ مشهديّة التّنبيه!

ليس بوسعنا الآن قراءة جميع لوحات الكتاب ومقاربتها مع النّصوص، لذلك سنكتفي بعرض اللّوحة الأولى كنموذج آخر.

(أنواع الصّداقة ص١٣، وهي صورة الغلاف الخلفيّ للكتاب)

إذا نظرنا نظرة تعيينيّة إلى الصّورة، نرى اللّون الأسود في رسم شيخين لا ملامح لهما، يجلسان متقابلَين؛ وإذا حلّلناها تضمينيًّا، وربطناها في معنى النّصّ وسياقه الّذي يعرض مقارنة بين أنواع الصّداقة الّتي تقع بين اللّذة أو المنفعة فتنقطع، أو الخير فتستمرّ (أُنظر: بوح المرجان في اختيار الخلّان، ص١٣-١٥)، نلاحظ دلالاتها؛ فإنّ السّواد يرمز إلى أيّام عجاف ومعاناة عسيرة مرّت بالصّديقين، فنستنتج أنّ العلاقة بينهما بعيدة عن المنفعة لكون اللّقاء الوديّ ما زال يجمعهما، أمّا رسمهما كشيخين طاعنين في العمر، يعني ذلك أنّها بعيدة عن اللذّة، فالصّداقة استمرّت كما يظهر في الصّورة، وهذا يعني الخير.

وفي المحصّلة، نستنتج أنّ العلاقة بين الصّورة والنّصّ علاقة "تمثيليّة" غير اعتباطيّة، تُظهر التّوافق في سماتها من خلال التّرميز. هذا التّزاوج أنجب انسجامًا لمّاحًا، وأضفى جماليّات مشهديّة في الشّكل ساهمت في اتّساع أفق العين تمهيدًا لرؤيا تفسيريّة تجذب مخيّلة المراهق.

وختامًا، إنّ عمليّة التّصنيف والاختيار لا تقلّ أهمّيّة عن عمليّة التّأليف والابتكار، وهذا الكتاب بما احتواه من مختارات دفينة أعاد نبشها الأستاذان بلال الأرفه لي وإيناس خنسه، لتحفّز القيم عند اليافعين. فمن حقّ ناشئتنا أن تعي وتقرأ، وتستلهم حاضر الأدب من ماضيه، وتتوقّف عنده لا فيه، لتنطلق بثبات نحو مستقبل إنسانيّ نبيل، ومسار ثقافيّ سليم.